لغة القرآن محت القبطية في مصر والبونيقية في الشمال الافريقي والنبطية في العراق واللاتينية في الشام

للأستاذ عبد السلام هارون

رئيس قسم اللغة العربية
(جامعة الكويت)

لا ريب ان الاسلام الذي نزل كتابه باللغة العربية ، ونطقت سنته باللغة العربية ، وانطلقت السنة صحابة رسوله بهذه اللغة ، وهي كلها في مجموعها من اصول التشريع الاسلامي — لا ريب انه كان العامل الاول في انتشار اللغة العربية على نطاق واسع سريع في انحاء المعمورة قديما وانه لولا النكسات السياسية التي صنعتها الغارات التترية ، والنكسات الاجتماعية التي ساقتها التيارات الشعوبية ، لغطت هذه اللغة مساحة تفوق المساحة التي استقرت فيها الآن .

واللغة العربية قبل القرآن والسنة لم تكن تدور الا في نطاق محدود بين العراق والحجاز شرقا وغربا ، وتخوم الروم وبلاد اليمن شمالا وجنوبا ، فان تنقل العرب كان محدودا بهذه الجزيرة العربية ، ولم يكن لها اثر يذكر في البلاد المجاورة كالفرس والروم والاحباش . ولكن الوثبة الاسلامية ساقت هذه اللغة الى بلاد الصين شرقا والمحيط الاطلسي غربا في مدة لاتتجاوز القرن الاول الهجري بمقتضى الفتوح والدعوة الاسلامية وهو انتشار قوي في سرعته ، لم يعهد له نظير في اي لغة اخرى .

واذا اضفنا الى الفتوح والدعوة الاسلامية ظاهرة التاليف باللغة العربية التي بدات في اول امرها لتخدم القرآن الكريم والسنة النبوية ، في سرعة مذهلة ، بأقلام المسلمين من العرب والاعاجم ، ثم تطورت الى خدمة العلوم الكونية التي يحث الدين على تحصيلها بمقتضى الامر الديني بالنظر في ملكوت السموات والارض ، والى خدمة العلوم السياسية والتنظيمية والتاريخية التي اقتضتها سياسة الحكم الاسلامي لتنظيم الادارة وجباية الخراج ، وما استتبع ذلك من التاليف في علوم الجغرافيا وتاريخ الشعوب التي اظلها الاسلام . اقول : ان ظاهرة التاليف باللغة العربية التي يستطيع المطلع على كتب التصانيف ، مثل كتاب كشف الظنون لملا كاتب جلبي ان يدرك انها جاوزت في العدد مئات من فروع العلوم المختلفة ، تبارت فيها اقلام العرب والاعاجم كانت عاملا قويا في انتشار هذه اللغة الكريمة . ويكفي ان نذكر **ان صاحب اول كتاب في النحو العربي رجل أعجمي هو سيبويه** . ولا ريب انه لم يتوجه الى ذلك الا بالدافع الديني الذي ساقه الى خدمة لغة القرآن والحديث . وكذلك نلمح هذا الدافع في الكثرة الاعجمية من رجال الحديث ، والفقه الاسلامي والتفسير وعلوم العربية .

ولقد بلغ السلطان الديني **للاسلام ان استطاع ان يمحو اللغة القبطية في مصر** ، التي كانت تطورا من اللغة المصرية القديمة الحضارة ، في زمن وجيز وان

يقضي كذلك على **لغة القرطاجنيين** وغيرهم في **شمالي افريقية** ، وعلى **لغة النبط** في **شمالي العراق**، وان يقلص ظل **اللغة الرومية** من الاطراف الشمالية لبلاد **الشام** ، كما استطاع ان يغير وجه اللغة الفارسية بمنحها اكثر من 30 ٪ من الفاظها ، وكذلك امكن هذا السلطان ان يترك في جنوبي ايطاليا وصقلية وفي تركيا واسبانيا وجنوب فرنسا اثرا ظاهرا دامغا تتفاوت درجاته في القلة والكثرة .

ولم تستطع اية لغة اخرى ان تترك اثرا ملموسا في اللغة العربية الفصيحة التي حرصت على نقائها وصفائها ، ولا اثرا واضحا في لهجاتها العامية التي هي بطبيعتها اشد استجابة للغات الدخيلة .

اما القول بان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام فقول يحيطه التحفظ ، فالاسلام انما انتشر بمبادئه واصوله الفطرية السليمة . يدل على ذلك هذه الملايين المسلمة التي لاتعرف من العربية قليلا ولا كثيرا ، وهذه الآلاف التي تعتنق الدين الاسلامي من الاوربيين والامريكيين والافريقيين والاسيويين لا عن وراثة ورثوها ، ولا عن امة وجدوا عليها آباءهم ، بل بالقراءة والتدبر في لغاتهم الاجنبية التي يطلعون بها على مباديء هذا الدين الحنيف . على حين لا نجد هذه الاعداد في المعاصرين من معتنقي الديانات الاخرى الا بالارغام السياسي أو التبشيري المتطرف .

ومن الحق ايضا ان اقول : ان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام بين من كانوا يتكلمون باللغة العربية في شبه جزيرة العرب ، ثم من جاء بعدهم من الاجيال التي درست العربية أو صارت العربية لغتها. ذلك أن اعجاز القرآن ، وهو مظهر التحدي الصريح الذي نطق به القرآن في قوله « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » كان هذا الاعجاز حقيقة واقعة الجمت العرب انفسهم وجعلتهم يدركون منطقيا ان مستوى بيان هذا الكتاب فوق مستوى البشر . ويسجل التاريخ عدة محاولات حاول اصحابها ان يباروا هذا القرآن او ان ينسجوا على منواله ، فباءوا بفشل واضح ، وكان هذا بمثابة الدليل القاطع على انه كتاب سماوي يحق للبشر ان يدينوا بدينه وان يؤمنوا به وبمن انزل عليه .

ومن هنا نستطيع ان نقول : **ان اللغة العربية من الاسباب الجوهرية لانتشار الاسلام** بين من يتكلمون العربية أو يتعلمونها ، وليست هي كل الاسباب التي انتشر بها الاسلام .

واما ارتباط الوعي الاسلامي والوازع الديني بما يعتري لغة الضاد من قوة وضعف فيمكن الاجابة عليه مما سبق من القول وهو **أن الاسلام ليس لغة وألفاظا ، وانما هو مباديء** ومثل عليا للبشرية جمعاء يستطيع المتدين ان يتمثلها في اي لغة وفي اية الفاظ كانت ، ما دامت تعبر عن تلك المباديء وتصور هاتيك المثل . **وهناك امم اسلامية معاصرة** لا تتكلم بالعربية ولا تفهم دين الاسلام بلغة العرب ، وانما **تستمد وعيها** الاسلامي **ووازعها الديني** من قبل لغاتها نفسها ، وفيها ائمة للدين يتعلمونه ويعلمونه بلغتهم كما هو الحال في اندونيسيا والملايو والباكستان حيث ترجم عدد كبير من امهات الكتب الدينية الى تلك اللغات ، والفت كذلك الكتب في مختلف مراحل الثقافة الدينية بين صغار المتعلمين وكبارهم ، وقامت الى جوار ذلك معاهد دينية وكليات اسلامية يدرس فيها الدين باللغات المحلية . ولكنا نستطيع ان نقول من زاوية أخرى : **ان الوعي الاسلامي الكامل** أي الادراك السليم لمفاهيم الاسلام **لا يتاتى الا بفقه لغة الكتاب وفهمها** ، وذلك الفقه والفهم انما يتسنى على وجهه الصحيح لمن كان له حظ فهم اللغة العربية نفسها ، وذلك لما يتطلبه النص العربي ولا سيما الديني منه ، من احساس لغوي خاص ، ومن دقة في ادراك مرامي الاساليب العربية .

واما الوازع الديني فانه لا يواكب اللغة العربية تلك المواكبة التي يجري عليها الوعي الاسلامي فانما يحكم هذا الوازع البيئة التي يعيش فيها المسلم . ونحن في عصرنا الحاضر قد نجد الوازع الديني في بعض البلدان غير العربية ذا سلطان اعظم من سلطانه في بلاد يتكلم اهلها بالعربية ، لان الوازع يتاثر بالبيئة الاجتماعية والبيئة السياسية اكثر من تاثره بالبيئة الثقافية ، لان الوازع من الظواهر النفسية التي تكون نتيجة لتفاعل المجتمع . ومن البديهي أنه لا تلازم بين العلم بالدين والوازع الديني ، ففي الشعب الواحد نجد ان الوازع الديني يتجلى بسلطانه في الطبقات التي هي اقل ثقافة . وهذا امر تقره المشاهدة والعيان .

واما تاثير اللهجة الاقليمية في التعابير العربية المحلية فقد كان واضحا بعض الوضوح في العهد القريب الذي كانت وشائج العروبة فيه في شبه تمزق

بفعل الاستعمار ، وكانت لغة الصحافة ولغة المكاتبات متباينة فى بلادنا العربية وهذه الظاهرة الآن فى طريق الاضمحلال بمقتضى تقارب الشعوب العربية وسهولة الانتقال بين أطرافها . ونحن الآن فى الكويت نجد صدى كبيرا للهجتنا المصرية بين المواطنين الكويتيين الذين درسوا فى مصر ، أو قام بالتدريس لهم فى الكويت مدرسون مصريون ، أو الذين تفاعلوا مع وسائل الاعلام .

وكذلك نجد كثيرا من المصطلحات اللغوية السورية قد اخذت طريقها الى مصر ورسخت فيها ولا سيما فى أيام الوحدة السياسية القريبة . ومهما يكن من تقارب بين شعوبنا العربية فاني اعتقد أن لكل موطن من مواطن العروبة تراثا لغويا يسري فى دمائه ولا يمكن التخلص منه ، الا اذا امكن التخلص من الفولكلور الشعبي .

واما السؤال الاخير الخاص بالمكانة التي يجب ان تحتلها العربية فى موطني مصر بالنسبة للغات الاجنبية ، فاني أعتقد أن اجابته موحدة بين كل مثقف عربي ، وهو ان يكون **للغة العربية السلطان الاول** فى اللغات الثقافية المحلية ، وان تكون هي لغة العلم المحلية .

واعتقد ان المحاولات التي بدات فى الجامعات المصرية لتعريب التدريس الجامعي تتسم بكثير من النجاح وان كانت الجمهورية السورية قد قطعت في ذلك شوطا اطول من شوط الجمهورية العربية المتحدة . والامل معقود فى أن يتم تعريب التدريس الجامعي فى تؤدة وتنسيق حتى يصل الى المستوى العالمي .